

وَقَالَ تَعَالَى: «يَأَيُّهَا النَّاسُ حَسْبُكُ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» [الأنفال: ٦٤]^[١]; أي: حَسْبُكَ وَحَسْبُكَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ اللَّهُ، فَهُوَ كَافِيْكُمْ كُلَّكُمْ، وَلَيْسَ الرَّاْدُ: أَنَّ اللَّهَ وَالْمُؤْمِنِينَ حَسْبُكَ كَمَا يَظْهُرُ بَعْضُ الْغَالِطِينَ؛ إِذْ هُوَ وَحْدَهُ كَافِيْهُ، وَهُوَ حَسْبُهُ لَيْسَ مَعَهُ مَنْ يَكُونُ هُوَ وَإِيَّاهُ حَسْبًا لِلرَّسُولِ، وَهَذَا فِي الْلُّغَةِ كَقُولِ الشَّاعِرِ:
فَحَسْبُكَ وَالضَّحَّاكَ سَيِّفُ مُهَنْد^[٢]

[١] قوله تعالى: «يَأَيُّهَا النَّاسُ حَسْبُكُ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» [الأنفال: ٦٤]، المعنى: وَحَسْبٌ مَنِ اتَّبَعَكَ، فَلَيْسَ مَعْطُوفًا عَلَى اسْمِ اللَّهِ، فَلَيْسَتِ الْآيَةُ: حَسْبُكَ اللَّهُ وَحَسْبُكَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، بل المعنى: حَسْبُكَ اللَّهُ وَحَسْبٌ مَنِ اتَّبَعَكَ.

وقد غلط من قال: إن قوله: «وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا» معطوفة على لفظ الجلالة؛ لأنَّه إذا كان معطوفاً على لفظ الجلالة صار النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَسْبُهُ اللَّهُ وَحَسْبُهُ مَنِ اتَّبَعَهُ، والمعلوم أنَّ الحَسْبَ هُوَ الْكَافِي، وإذا قلنا: معطوفة على (الله)، صارَ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْلَى مِنْهُ مَرْتَبَةً، وهذا لا يستقيمُ واستشهد المؤلف بذلك بهذا البيت:

[٢] يعني: حَسْبُكَ أَنْتَ وَالضَّحَّاكُ جَمِيعًا وَلَيْسَ حَسْبُكُمَا السَّيْفُ، فالآية على مِيزانِ هذا البيت؛ بمعنى أنَّ هذا البيت بيت لُغَةٍ مشهورٍ والأية تَنْتَزَلُ عَلَيْهِ، وليس المعنى أنَّ الْمُؤْمِنِينَ حَسْبٌ لَهُ مَعَ اللَّهِ أَبْدًا، هذا هو تَقْرِيرٌ هَذَا الأَصْلُ، وَهُوَ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ، أَمَّا الطَّاعَةُ فَإِنَّهَا تَكُونُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِمَنْ دُونَ الرَّسُولِ، «وَإِنْ جَهَدَكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمُهُمَا» [آلِ النَّبِيِّ: ٨]، وفي غير ذلك أَطْعَهُمَا، وَهَذَا يُوصِي الإِنْسَانُ بِطَاعَةِ وَالْدِيَةِ.

(١) انظر: أمالى القالى (٢٦٢/٢).

وَتَقُولُ الْعَرَبُ: «حَسْبُكَ وَزِيَّدًا دِرْهَمٌ» أي: يَكْفِيكَ وَزِيَّدًا بِجَيْعًا دِرْهَمٌ.

وَقَالَ فِي الْخُوفِ وَالْخُشْيَةِ وَالتَّقْوَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشَى اللَّهَ وَيَسْتَغْفِرُ لَهُ هُمُ الْفَاجِرُونَ﴾ [النور: ٥٢]، فَأَثْبَتَ الطَّاعَةَ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، وَأَثْبَتَ الْخُشْيَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنَّ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَقُوُهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣]، فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَجَعَلَ الطَّاعَةَ لِلرَّسُولِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُطِيعُ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشُوْا الْكَاسَ وَأَخْشُوْنَ﴾ [المائدة: ٤]، وَقَالَ تَعَالَى:

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوْنَ إِنْ كُنُّمُ مُؤْمِنِيْنَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشَرَّكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنْكُنْمُ أَشَرَّكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنُّمُ تَعْلَمُوْنَ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَلَمْ يَلِمُسُوا إِيمَانَهُمْ يُظْلِمُ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُوْنَ﴾

[الأنعام: ٨١ - ٨٢].

وَفِي الصَّحِيْحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا نَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالُوا: وَأَيْنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟

فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّهَا هُوَ الشَّرُكُ، أَوْ لَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ: ...

كَذِلِكَ: ﴿وَأَطِيعُوْا رَسُولَ وَأَوْلَى الْأَئْمَاءِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وَقَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«اسْمَعْ وَأَطِيعْ»^(١).

(١) تقدم تخریجه (ص: ٤٦٧).

إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ^(١)، وَقَالَ تَعَالَى: «فَإِنَّمَا فَازَ هُبُونٌ» [النَّحْل: ٥١]، «وَإِنَّمَا فَاتَّقُونَ» [البَرْ: ٤١].

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: «مَنْ يُطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِيهَا فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَلَنْ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئًا»^(٢)، وَقَالَ: «وَلَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ»^(٣).

فِي الطَّاعَةِ: قَرَنَ اسْمَ الرَّسُولِ بِاسْمِهِ بِحَرْفِ الْوَاءِ، وَفِي الْمَشِيشَةِ: أَمْرَ أَنْ يُجْعَلَ ذَلِكَ بِحَرْفِ «ثُمَّ»، وَذَلِكَ لِأَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ طَاعَةُ اللَّهِ، فَمَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَطَاعَةُ اللَّهِ طَاعَةُ الرَّسُولِ بِخِلَافِ الْمَشِيشَةِ، فَلَيَسْتَ مَشِيشَةً أَحَدٌ مِنَ الْعِبَادِ مَشِيشَةً لِلَّهِ، وَلَا مَشِيشَةً لِلَّهِ مُسْتَلِزَةً لِمَشِيشَةِ الْعِبَادِ، بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَإِنْ لَمْ يَشَأْ النَّاسُ، وَمَا شَاءَ النَّاسُ لَمْ يَكُنْ إِنْ لَمْ يَشَأْ اللَّهُ.

الأَصْلُ الثَّانِي: حَقُّ الرَّسُولِ ﷺ، فَعَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ، وَنُنْطِيعُهُ، وَنَتَّبِعُهُ، وَنُرْضِيَّهُ^(٤)،

[١] قوله: «وَنُرْضِيَّهُ» لو قال: تَرْتَضِيهِ كانَ الْأَمْرُ وَاضِحًا، لَكِنْ تُرْضِيهِ إِذَا قيلَ: كَيْفَ تُرْضِيهِ وَهُوَ مِيتٌ؟ نقول: أَفْعُلُ مَا يَرْضَى بِهِ «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ» [التوبَة: ٦٢].

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: «وَأَنْذَنَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»، رقم (٣٣٦٠).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب الرجل يخطب على قوس، رقم (١٠٩٧).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٩٣)، وابن ماجه: كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت، رقم (٢١١٨).

وَنُحِبَّهُ، وَنُسْلِمَ لِحُكْمِهِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبه: ٦٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْ إِنْ كَانَ أَبَاكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَنَكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالُ أَقْرَفُتُمُوهَا وَتَجَنَّرَهُ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَكِنَ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبه: ٢٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

وقد يُقال: إنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الْأَصْلَاحُ وَالسَّلَامُ تُعَرَّضُ عَلَيْهِ أَعْمَالُ أُمَّتِهِ كَمَا رُوِيَ ذَلِكَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِنْ كَانَ الْحَدِيثُ ضَعِيفًا^(١)، لَكِنَّهُ إِذَا كَانَ كَذِيلُكَ فَإِنَّهُ إِذَا عَلِمَ بِعَمَلِ أُمَّتِهِ فَإِنَّهُ يُرْضِي أَوْ يُغْضِبُ وَلَوْ كَانَ مِيتًا، وَإِذَا قَلَنَا بَعْدَمْ صِحَّةِ هَذَا فَإِنَّ مَعْنَى إِرْضَائِهِ أَنْ نَفْعَلَ مَا يُرْضِيَهُ وَإِنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ ذَلِكَ بِالْفِعْلِ؛ لَأَنَّهُ مِيتٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَإِذَا سُئِلَ سَائِلٌ: أَلِيسْ عِنْدَمَا ثُنُقِي السَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُرْدِدُ اللَّهُ عَلَيْهِ الرُّوحُ فَيُرْدِدُ السَّلَامَ^(٢)؟

فَالجَوابُ: إِذَا كَانَ الْمَيْتُ دُونَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا سَلَّمَ عَلَيْهِ مَنْ يَعْرِفُهُ رَدَّ عَلَيْهِ جَاءَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ ذَكْرِهِ أَبْنِ عَبْدِ الْبَرِّ وَصَحَّةُهُ، فَمَا بِالْكَبِيرِ بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ الْأَصْلَاحُ وَالسَّلَامُ؟!

[١] قَوْلُهُ فِي الْقَسْمِ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾؛ ﴿فَلَا﴾ هَذِهِ لَيْسَ نَافِيَّةً، لَوْ كَانَتْ نَافِيَّةً لَانْتَفَقَ الْقَصْدُ، لَكِنَّهَا مُؤْكَدَةً لِلتَّنْبِيَّهِ وَالْتَّأكِيدِ، فَهِيَ مِنْ حِيثُ الإِعْرَابِ زَائِدَةً.

الأَصْلُ: فَوْرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ.

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرَ فِي التَّفْسِيرِ (١٥/١٣)، وَالْيَهْقِنِي فِي دَلَائِلِ النَّبِيَّ (٢/٣٩٠).

(٢) أَخْرَجَهُ أَبْوَ دَاؤِدَ: كِتَابُ الْمَنَاسِكَ، بَابُ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، رَقْمُ (٤١/٢٠).

حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بِيَنْهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ
وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

[١] قوله: ﴿هَتِيْ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بِيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا قَمَّا قَضَيْتَ وَسِلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. ثلاثة شروط لا يؤمّنون إلا بهذه الأمور الثلاثة:

أولاً: يُحَكِّمُوكَ فِيهَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، فَلَا يُحَكِّمُوْا غَيْرَكَ مِنَ الْقَوَافِينَ وَلَا مِنَ الطَّوَاغِيْتِ، لَكُنْ يُحَكِّمُوكَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثانياً: ﴿لَا يَحِدُّوْنَ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ وَمَعْنَى ﴿حَرَجًا﴾ أَيْ: ضِيقًا، لَا يَحِدُّونَ فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ضِيقًا كَمَا يُوجَدُ عِنْدِ بَعْضِ النَّاسِ، إِذَا وَجَدْتَ أَنْ نَفْسَكَ تُضِيقُ بِشَيْءٍ مِنَ الشَّرْعِ فَاعْلَمْ أَنْ إِيمَانَكَ ناقِصٌ.

لو رأيت أن نفسك تضيق بصلة الجماعة، أو تضيق بوجوب كذا وكذا من الأمور الواجبة عليك، أو تضيق بتحريم شيء من الأشياء التي تهواها، إذا وجدت نفسك تضيق بهذا فاعلم أن إيمانك ضعيف؛ لأن الله تعالى أقسام بربوبيته لرسوله إلا يؤمن من وجد هذا الضيق.

ثالثاً: «وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا»، التوكيد في هذا المصدر دليل على أنه لا بد من تسليم تام للغاية ليس فيه أي دغل، وهذا التنفيذ.

فهنا ذَكْرُ الوسِيلَةِ وَالاطمئنانُ الْقَلْبِيُّ وَالتَّنْفِيدُ الْفِعْلِيُّ، فَالوَسِيلَةُ يُحَكَّمُوا بِهَا؛ لِأَنَّ
هذِه طَرِيقُ الْوَصْوَلِ إِلَى مَعْرِفَةِ الشَّيْءِ؛ تَحْكِيمُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الْأَصْلَةُ وَالسَّلَامُ وَاطمئنانُ الْقَلْبِ
يَكُونُ أَنْتَمْ لَا يَجِدُونَ حَرَجًا فِي ذَلِكَ يَعْنِي: صُدُورُهُمْ لَا تَضِيقُ، وَالتَّنْفِيدُ الْفِعْلِيُّ
»وَسَلَّمُوا سَلِيمًا«.

هذه الشروط الثلاثة يحب أن تطبقها على نفسك في كل شيء، ولتنظر هل أنت إذا أشكّل عليك شيءٌ ترجع إلى الكتاب الفلاي وإلى قول فلان وقول فلان، إن كان الجواب بالإيجاب؛ فإيمانك ناقص، وإن كان الجواب بالنفي وأنك عندما تريده الحكم لا تذهب إلا لكتاب والسنة فإيمانك صحيح.

وسيلتك الآن صحيحة إلى معرفة الحق، يبقى عندنا وصلت إلى الحكم وعرفت أن الحكم يحرّم عليك كذا وكذا، نفذت هذا الحكم بسهولة أو قيلت هذا الحكم بقليلك بدون أن تجده فيه ضيقاً، اشرح صدرك له فأنت مؤمن، أما إذا ضاق صدرك به فأنت ناقص الإيمان.

نأتي للمرتبة الثالثة: اشرح قلبك له ورسيط به واطمأنت لهذا الحكم، لكن صار عندك تهاؤن في تنفيذه فالإيمان ضعيف، لا بد من أن تسلّم تسليماً، هذه هي الأوصاف التي ترد في القرآن، وكذلك في السنة ليس معناها أنها نقرؤها فقط لنعلم بها، لكن نقرؤها لنطبقها على أنفسنا حتى يكون سيرنا ومنهاجنا على شريعة الله، أما أن تقرأ ولا تعمل فائي فائدة؟

لا بد أن يقرأ العبد ليعلم ثم يعمل: نظر، فعلم، فعمل، وإن أصبحت تلاوتنا لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ لا شيء، بل أصبحت ضررا علينا؛ لأن من حمل شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله فيما له وإنما عليه.

وإذا سأله سائل: هل يجوز أن نقول: الله ورسوله أعلم على الإطلاق؟ فالجواب: يجوز أن نقول: «الله ورسوله أعلم» في الأمور الشرعية، لكن لا يجوز

في الأمور الكونية، فمثلاً: لو قلت: هل سينزل غداً مطر؟

فالجواب: الله أعلم، وليس الله ورسوله.

وإذا قال قائل: كيف وقد مات الرسول عليه الصلاة والسلام؟

فالجواب: أنه يعلم الحكم الشرعي؛ لأن الحكم الشرعي ثابت من قبل أن يموت الرسول عليه الصلاة والسلام.

جميع الأحكام الشرعية التي في هذه الشريعة ثابتة من قبل أن يموت الرسول عليه الصلاة والسلام؛ ليس هناك حكم تجدد أبداً، الحلال حلال والحرام حرام قبل أن يموت الرسول، وهذا ليس هناك نسخ بعد الرسول عليه الصلاة والسلام، هل يمكن أن تحدث حكماً جديداً بعد موته؟ لا يمكن ذلك، إذن فالأحكام على ما هي عليه.

مثلاً إذا قلنا: هل الرزق حرام؟

فالجواب: الله ورسوله أعلم؛ لأن الرسول يعلم أنه حرام.

وهذا قلنا: أن الأحكام القدرية لا نقول إن الله ورسوله أعلم؛ لأن هذه مسائل قدرية لا يعلمهما إلا الله، لكن أي مسألة شرعية فإن الرسول عليه الصلاة والسلام يعلمهها؛ لأن الشرع قد كمل **﴿الآنَ أَكْتَلُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ﴾** [المائدة: ٣٢]، هذه ترثت في حياة الرسول.

إذن: المسائل الشرعية نقول فيها: الله ورسوله أعلم والمسائل الكونية، نقول فيها:

الله وحده أعلم.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُجْبِونَ اللَّهَ فَأَتَيْتُعُونِي يَعِبِّرُكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ [١].

[١] هذه تسمى آية المحنّة؛ قوم ادعوا أنهم يحبون الله، فجاءت هذه الآية امتحاناً ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُجْبِونَ اللَّهَ فَأَتَيْتُعُونِي يَعِبِّرُكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، فميزان حبّة الله اتّباع الرّسول عليه الصّلاة والسلام، فيقدر اتّباعك الرّسول ﷺ تكون محبتك لله تبارك وتعالى، وتأمل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُجْبِونَ اللَّهَ فَأَتَيْتُعُونِي ﴾ [آل عمران: ٣١]، ماذا تتّوقع الجواب؟ فاصدّقوا بذلك. هذا الجواب؛ يعني: تصدّقوا وتكونوا محبين لله، لكن جاء الجواب فوق الشرط: ﴿ يَعِبِّرُكُمُ اللَّهُ ﴾.

قال أهل العلم: ليس الشأن أن تحبّ الله، ولكن الشأن أن يحبّك الله، وهذه هي التّبيحة والشّمرة العظيمة أن يكون الله تبارك وتعالى محبّاً لك، فيكون الجواب هنا أفاد فائدتين؛ أفاد تصديقك في دعوتك وزيادة على ذلك ثوابك عليه، وثوابك على ذلك ما هو؟

أن يحبّك الله، فاتّباع الرّسول ﷺ تصديق لدعوك عبّة الله، وثواب لك لمحبّة الله لك.



الإيمان بخلق الله وأمره

فَضْلٌ: وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا، فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ يَحِبُّ الْإِيمَانَ بِخَلْقِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ وَبِقَضَائِهِ وَشَرِيعِهِ، وَأَهْلُ الضَّالِّ الْخَاطِئُونَ فِي الْقَدْرِ انْقَسَمُوا إِلَى ثَلَاثٍ فِرَقٍ: مَجْوِسَيَّةٍ وَمُشْرِكَيَّةٍ وَإِبْلِيسِيَّةٍ.

فَالْمَجْوِسَيَّةُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِقَدْرِ اللَّهِ وَإِنْ آمَنُوا بِأَمْرِهِ وَتَهْنِيهِ؛ فَغُلَامُهُمْ أَنْكَرُوا الْعِلْمَ وَالْكِتَابَ، وَمُقْتَصِدُهُمْ أَنْكَرُوا عُمُومَ مَشِيشَيَّةٍ وَخَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَهُؤُلَاءِ هُمُ الْمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ وَاقَهُمْ [١٠].

[١] إِنَّ الْقَدَرِيَّةَ وَهُمُ الْمُعْتَزِلَةُ هُمْ مَجْوِسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا قَدْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهَا يَتَعَلَّقُ بِأَفْعَالِ الْعَبْدِ، وَلَكِنَّهُمْ عَظَمُوا الْأُمْرَ وَالشَّرْعَ، وَلَكِنَّهُمْ نَقَصُوا فِي الْخَلْقِ وَالْقَدْرِ.

قوله: «فَغُلَامُهُمْ أَنْكَرُوا الْعِلْمَ وَالْكِتَابَ، وَمُقْتَصِدُهُمْ أَنْكَرُوا عُمُومَ مَشِيشَيَّةٍ وَخَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ»، وقد مرّ علينا أن القضاء والقدر يتضمن أربع مراتب وهي: العلم، ثم الكتابة، ثم المشيشة، ثم الخلق، وأنشدنا في ذلك بيتاً:

عِلْمٌ كِتَابٌ مَوْلَانَا مَشِيشَيَّةٌ
وَخَلْقٌ وَهُوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينٌ

القدرية انقسموا إلى فريقين:

غُلَامُهُمُ السَّابِقُونَ أَنْكَرُوا الْعِلْمَ وَالْكِتَابَ، وَمِنْ بَابِ أَوْلَى أَنَّهُمْ يُنْكِرُونَ الْمَشِيشَةَ

وَالْفِرْقَةُ الثَّانِيَةُ: الْمُشْرِكَيْهُ الَّذِينَ أَقْرَوْا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ، وَأَنْكَرُوا الْأَمْرَ وَالنَّهَيَ، قَالَ تَعَالَى: «سَيَقُولُ الَّذِينَ أَنْكَرُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا إِبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمَنَا مِنْ شَيْءٍ» [الأنعام: ١٤٨]، فَمَنْ احْتَجَ عَلَى تَعْطِيلِ الْأَمْرِ وَالنَّهَيِّ بِالْقَدْرِ فَهُوَ مِنْ هُؤُلَاءِ، وَهَذَا قَدْ كَثُرَ فِيمَنْ يَدْعُى الْحِقْيَقَةَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ^(١).

وَالْخَلْقَ، يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ أَفْعَالَ الْعِبَادِ إِلَّا إِذَا وَقَعَتْ، وَلَا كَتَبَهَا فِي الْلَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَإِنَّمَا الْأَمْرُ أُنْفُ - أَيْ: مُسْتَأْنَفُ - لَا يَعْلَمُ اللَّهُ عَنْهَا شَيْئًا مِنْ أَفْعَالِنَا أَبَدًا.

الْمُقْتَصِدُونَ مِنْهُمُ الَّذِينَ اسْتَقَرُّ رأِيَ الْمُعْتَلَةِ عَلَيْهِ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ وَكَتَبَ لَكُمْ لَكِنْ لَا يَشَاءُ وَلَا يَخْلُقُ، فَالْعَبْدُ مُسْتَقِلٌ بِعَمَلِهِ لَيْسَ اللَّهُ فِيهِ مَسِيقَةٌ وَلَا خَلْقُهُ، هُؤُلَاءِ نُسَمِّيهِمْ بِجُوْسِيَّةٍ، وَهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا: «الْقَدْرِيَّةُ مُجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ»^(١).

وَإِذَا سُئِلَ: هُلْ هُمْ مَوْجُودُونَ الْآنَ؟

فَالجواب: لا، لَيْسُوا مَوْجُودِينَ، لَكِنْ هَذَا مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ.

[١] هَذَا مَذْهَبُ الْمُشْرِكَيْهُ، لَكِنْ مِنْهُمُ الطَّوَافُ الْمُبَدِّعَةُ؟

الجواب: الْجَبْرِيَّةُ الْجَهْمِيَّةُ؛ لِأَنَّ الْجَهْمِيَّةَ جَبْرِيَّةٌ وَمُرْجِحَةٌ كَمَا مَرَّ عَلَيْنَا فِيهِمْ ثَلَاثُ جِهَاتٍ، هُؤُلَاءِ يَقُولُونَ: مَا لَكُمْ تَلُومُونَا عَلَى الْمَعَاصِي؟ لَيْسَ لَكُمْ حُقُّ فِي لَوْمَنَا عَلَى الْمَعَاصِي؛ لِأَنَّ اللَّهَ - كَمَا زَعَمُوا - كَتَبَهَا وَأَجْبَرَنَا عَلَيْهَا، لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا فَقَالُوا: مَا عَلَيْنَا لَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ وَلَا شَيْءٌ، نَحْنُ أَنْاسٌ نَتَحَرَّكُ بِغَيْرِ إِرَادَةٍ وَنَفْعَلُ بِغَيْرِ إِرَادَةٍ فَلَيْسَ عَلَيْنَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ، إِذْنَ يَزْنِي، وَيَسْرِقُ، وَيَقْتُلُ وَيَقُولُ: أَنَا لَسْتُ مَتْلُومًا

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدُ: كِتَابُ السَّنَةِ، بَابُ فِي الْقَدْرِ، رَقْمٌ (٤٦٩١).

.....
.....
.....

على هذا؛ لأنَّه مُقدَّرٌ عَلَيْهِ.

وقد قيل: إنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيَّ إِلَيْهِ بَسَارِقٍ يَسْرِقُ فَأَمَرَ بِقْطَعِ يَدِهِ فَقَالَ: مَهْلَلاً يا أميرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهُ مَا سَرَقْتُ إِلَّا بِقَدْرِ اللَّهِ. فَقَالَ أميرَ الْمُؤْمِنِينَ: نَعَمْ، وَنَحْنُ لَا نَقْطِعُكَ إِلَّا بِقَدْرِ اللَّهِ. فَقَابِلَ الْحُجَّةَ بِالْحُجَّةِ مَعَ أَنَّ أميرَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ حُجَّاتَانِ: حُجَّةٌ شَرِيعَةٌ؛ لِأَنَّهُ مَأْمُورٌ بِقْطَعِ يَدِ السَّارِقِ، وَحُجَّةٌ قَدْرَيَّةٌ وَهُوَ أَنَّهُ سَيَقْطَعُ يَدَهُذَا السَّارِقِ بِقَدْرِ اللَّهِ، وَالسَّارِقُ لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا حُجَّةٌ قَدْرَيَّةٌ وَلَيْسَ مَأْمُورًا بِالشَّرِيعَةِ أَنْ يَسْرِقَ مَعَ أَنَّ الْحُجَّةَ الْقَدْرَيَّةَ باطِلَّةٌ؛ لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً لَمَا كَانَ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ، لَكَانَ إِرْسَالُ الرُّسُلِ لَيْسَ بِحُجَّةٍ؛ لِأَنَّ الْقَدْرَ بَاقٍ مَعَ إِرْسَالِ الرُّسُلِ.

وَمَنْ يَدْعُى الْحَقِيقَةَ مِنَ الْمَتَصَوِّفَةِ، وَهُمْ يُغَالُونَ فِي الْعِبَادَةِ، وَسُمِّوُا مَتَصَوِّفَةٌ قِيلَ: إِنَّهُ مِنَ الصَّفَا، وَقِيلَ: إِنَّهُ مِنَ الصُّوفِ، وَقِيلَ: مِنَ الصُّفَّةِ؛ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ فِي الْإِشْتِقَاقِ:

فَمَنْ قَالَ مِنَ الصَّفَا: زَعَمُوا أَنَّ قُلُوبَهُمْ مَعَ اللَّهِ صَافِيَّةٌ، وَلَكِنْ هَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنَ الصَّفَا لِسَمِّيَّاهُمْ: الصَّفَوِيَّةُ، وَهُمْ لَا يُسَمِّونَ الصَّفَوِيَّةَ.

وَمَنْ قَالَ مِنَ الصُّفَّةِ: نَسْبَةً لِأَهْلِ الصُّفَّةِ الَّذِينَ قَدِمُوا مَهَاجِرِينَ إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الْأَصْلَاحُ وَالسَّلَامُ لَيْسَ لَهُمْ أَهْلٌ وَلَا مَالٌ فَيَأْوُونَ بِالصُّفَّةِ فِي الْمَسْجِدِ، وَهَذَا أَيْضًا لَيْسَ بِصَحِيحٍ، وَلَا لِسَمِّيَّاهُمْ: الصُّفَّيَّةُ، نِسْبَةٌ لِلصُّفَّةِ.

إِذْنَ يَقِي عَلَيْنَا النِّسْبَةُ إِلَى الصَّوْفِ، وَسَمِّوَا بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ شَعَارَهُمْ لِبْسُ الصَّوْفِ تَزَهُّدًا، يَقُولُونَ: لَا نَلْبِسُ الْكِتَانَ نَلْبِسُ الصَّوْفَ، لَكِنْ لَيْسَ الصَّوْفُ النَّاعِمُ الْغَالِيُّ الَّذِي يُلْبِسُ الْآنَ، هُمْ يُلْبِسُونَ الْأَصْوَافَ الَّتِي تُسْسِجُ حِبَالُهُ الْغَلِيظَةُ بِالْيَدِ، فَيُلْبِسُونَ

وَالْفِرْقَةُ التَّالِثَةُ: وَهُمُ الْإِبْلِيسِيَّةُ الَّذِينَ أَفْرَوَا بِالْأَمْرِينَ، لَكِنْ جَعَلُوا هَذَا مُتَنَاقِضًا مِنَ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَطَعَنُوا فِي حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ كَمَا يُذْكُرُ ذَلِكَ عَنْ إِبْلِيسَ مُقَدِّمِهِمْ؛ كَمَا نَقَلَهُ أَهْلُ الْمَقَالَاتِ وَنُقَلَّ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ^[١].

ذَلِكَ تزْهُدا يَقُولُونَ: نلبس الصوف؛ لأننا لا نريد أن نتمتع بالدنيا، فلذلك يُسمون: صُوفِيَّةً.

وإذا سأله سائل: هل كان الرَّسُولُ ﷺ يلبس الحشين من الشَّابِ؟
فاجهواه: أن الرَّسُولَ ﷺ كان يلبس خشيناً، وليس الكتانَ، وليس غيره من الأشياء الرَّقِيقَةَ، ويلبس هذا وهذا، يعني: حسب ما تيسر له عَيْنَهُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يتبعه بِلباس خشن أبداً.

[١] المَجْوِسِيَّةُ الْآنَ يَحْتَجُونَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالشَّرِيعَةِ، يَقُولُونَ: كَيْفَ تَأْمُرُنَا وَتَنْهَانَا وَأَنْتَ الَّذِي تُجْبِرُنَا؟! مثلكما قال لإبليس: اسْجُدْ لآدَمَ قال: أنا خَيْرٌ مِنْهُ، كيف تأمرني أن أسجد له وأنا خَيْرٌ منه؟! فاحتاج على شَرِيعَةِ اللَّهِ بِقَدْرِ اللَّهِ، هُمْ أَيْضًا يَحْتَجُونَ بِالشَّرِيعَةِ عَلَى الْقَدَرِ، وَبِالْعَكْسِ يَرَوْنَ أَنَّ هَذَا تَنَاقُضٌ، وَيَقُولُ الْقَائِلُ مِنْهُمْ:

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَ بِالْمَاءِ^(١)

الْيَمُ مَعْرُوفٌ عندنا وهو الْبَحْرُ، كَتَفَ وَاحِدًا وَرَمَاهُ بِالْبَحْرِ، وَقَالَ لَهُ: إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَ بِالْمَاءِ هُلْ يَمْكُنُ هَذَا؟

هم يَقُولُونَ: اللَّهُ أَمْرَنَا وَنَهَانَا، افْعَلُوا كَذَا وَلَا تَفْعَلُوا كَذَا، ثُمَّ يُجْبِرُنَا عَلَى أَنْ نَعْصِي اللَّهَ هَذَا تَنَاقُضٌ، فَهُمْ يَحْتَجُونَ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ بِقَدْرِ اللَّهِ.

(١) هو من قول الحلاج، انظر: الوافي بالوفيات (٤٦/١٣).

والمقصود أن هذا مما تقوله أهل الضلال، وأماماً أهل المدى والفالح
فيؤمرون بهذا وهذه، ويؤمنون بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وما شاء
كان وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قدير، وأحاط بكل شيء علماً،
وكُلُّ شيء أخصاه في إمامٍ [١] مبين.

ويتضمن هذا الأصل من إثبات علم الله وقدرته ومسيئته ووحدانيته
وربوبيته، وأنه خالق كل شيء وربه ومليكه: ما هو من أصول الإيمان.

ومع هذا فلا ينكرون ما خلقه الله من الأسباب التي يخلق بها المسببات،
كما قال تعالى: ﴿حَقٌّ إِذَا أَفْلَتْ سَحَابًا ثُقَالًا سُقْنَةٌ لِسَلَبٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا
بِهِ مِن كُلِّ الْمَرَاثِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ
رِضْمَوْنَكُمْ سُبْلَ السَّلَامِ﴾ [المائدah: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يُضْلِلُ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي
بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، فأخبر أنه يفعل بالأسباب [٢].

ومعلوم أن هذا ليس ب صحيح فالذين عطلوا الأمر والنهي هؤلاء مشركون،
والذين أفروا بالأمر والنهي وبالقدر، لكن جعلوا ذلك تنافضاً هؤلاء إنليسية، ووجه
المشابهة بينهم وبين إيليس: أنهم احتجوا على الشرع بالقدر مثل ما احتج إيليس بالشرع
على القدر، أمر أن يسجد فقال: أنا خير منه، والأولون بجوسية؛ لأنهم زعموا أن العبد
خالق مع الله عزوجل وأنه مستقل ب فعله.

[١] معنى: «إمام» كتاب، وسمى الكتاب إماما؛ لأنّه يوم ويقصد.

[٢] نحن نؤمن بالقدر ونؤمن أيضاً بالأسباب، نؤمن بأن القدر له سبب، هذا
السبب خالقه الله، فالله سبحانه وتعالى حكيم يجعل لكل شيء سبباً ﴿حَقٌّ إِذَا أَفْلَتْ سَحَابًا

وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ يَفْعُلُ عِنْدَهَا لَا يَبْهَا فَقَدْ خَالَفَ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ وَأَنْكَرَ مَا
خَلَقَهُ اللَّهُ مِنَ الْقُوَىٰ وَالظَّبَائِعِ^[١]،

يَقَالُ: سُقْنَتُهُ لِبَلْدَهُ مَيْتٍ فَأَنْزَلَنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجَنَا بِهِ، مِنْ كُلِّ الشَّرَّاتِ^{﴿الْأَعْرَاف٢٧﴾}
أي: بالماء.

قوله: «مِنْ كُلِّ الشَّرَّاتِ»، فالماء إذن سبب لإخراج الشّرّات.

قوله: «يَهْدِي يَهْدِي اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ، شَبَّلَ السَّلَامِ»^{﴿الْمَائِدَة١٦﴾}
أي: بالكتاب فهو سبب للهداية، «يُضِلُّ يُضِلُّ يَهْدِي يَهْدِي كَثِيرًا كَثِيرًا»^{﴿الْبَقْرَة٢٦﴾}
فهو سبب للإضلal والهداية.

[١] المؤلف أشار إلى ثلاثة آراء بدعية:

أولاً: من يقول إنه يفعل عند الأسباب لا بها، وهذا مذهب الأشاعرة الذين
ينكرون تأثير الأسباب بالأسباب، ويقولون: إن المسببات تحصل عند السبب لا به،
فمثلاً إذا كسرت الزجاج، لا يقولون إن الانكسار حصل بالكسر، ولكن حصل عند
الكسر، لا به، وعندما توقد النار ويغور الماء، يقولون: إن الماء لا يغور بالنار ولكنه
يفور عند النار، يفوت عندها لا بها، عندما تعلق فرجة وتغلق يقولون: إن هذا
الانغلاق لم يحصل ب فعلك وإنما حصل عند فعلك لا به، ينكرون أن يكون للأسباب
تأثير في مسبباتها، ويقولون: إن تأثير الأسباب ليس مباشراً للمسببات، ولكنه يحصل
عند الأسباب لا بالأسباب.

عندما يأكل الإنسان حتى يملأ بطنه ويشبع يقولون: شبع عند الطعام لم يشبع
بالطعام، عندما يكتوي الإنسان شيئاً من جسمه فيخترق يقولون: احترق عند النار؛

وَهُوَ شَيْءٌ يُنْكَارٍ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ مِنَ الْقُوَى الَّتِي يَفْعَلُ الْحَيَّانِ بِهَا مِثْلَ قُدْرَةِ الْعَبْدِ^[١]، كَمَا أَنَّ مَنْ جَعَلَهَا هِيَ الْمُبِدِعَةَ لِذَلِكَ فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَأَضَافَ فِعْلَهُ إِلَى غَيْرِهِ^[٢].

قالوا: لأننا لو قلنا: إن الأسباب مؤثرةً بنفسها شاهدنا القدرية الذين يقولون: ثمة خالق غير الله. وفي الحقيقة قال الشيخ: أنكروا ما خلقه أولاً، وخالفوا ما جاء به القرآن، فإن الله أثبت أن للأشياء أسباباً، وأنكروا ما خلقه الله من القوى والطبياع؛ عندما تختفي الحديدية بالنار هل هي احتممت بالنار أم عند النار؟

لا شك أنها احتممت بالنار، عندهم عند النار مع أنها لو وضعنا حديداً عند النار ساعة كاملة ما احتمت، لكن لو وضعناها وسط النار تنقلب إلى حمراء، أنكروا ما أودع الله تعالى من القوى والطبياع في هذه الأشياء.

[١] ثانياً من يقول: «شَيْءٌ يُنْكَارٍ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ مِنَ الْقُوَى».

وإذا سأله: هل يُشْبِهُ هذا مذهب الأشاعرة؟

فالجواب: لا، مذهب الأشاعرة: أن الأسباب لا تؤثر تحصل عندها لا بها، لكن «وَهُوَ شَيْءٌ يُنْكَارٍ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ مِنَ الْقُوَى الَّتِي يَفْعَلُ الْحَيَّانِ بِهَا مِثْلَ قُدْرَةِ الْعَبْدِ» مذهب الجبرية، الجبرية يُنكرون للعبد قدرة على العمل، يقولون: العبد يَفْعَلُ بدون اختيار وبدون قدرة، وأنه مسلوب القدرة عن فعله، فهو لاء أشبه للجبرية من غيرهم.

[٢] ثالثاً: من جعلها هي المبدعة لذلك - أي: القوى التي في الحيوان - فقد أشرك بالله، هذا مذهب القدرية.

فهنا أشار المؤلف إلى ثلاثة مذاهب: مذهب الأشاعرة، ومذهب الجبرية، ومذهب القدرية.

بقي مذهب أهل السنة والجماعة، وهو خلاف هذه المذاهب، يقولون: إنَّ الأسباب مؤثرة في مسبباتها مباشرةً، لكن من الذي جعل الأسباب مؤثرة؟ الذي جعلها مؤثرة هو اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا لما ألقى إبراهيمُ في النارِ وهي تتأججُ وتحرقُ ما حولها فضلاً عنْ فيها: صارتْ بُرْدًا وَسَلَامًا عليه، فعلمَ أنَّ اللهَ هو الذي أودعَ هذه الأسباب.

ونحن إذا قلنا: هذا الشيءُ يحرقُ، وهذا الشيءُ يتلفُ، وهذا الشيءُ يفعلُ كذا وكذا فلسنا نعني: أنه ينفردُ بها عنِ اللهِ، بل نعني: أنَّ اللهَ خلقَ فيه هذه القوَّةَ المؤثرة.

وليس في هذا الشيءِ إشكالٌ أو تشرِيكٌ مع الله ما دمنَا نؤمنُ بأنَّ هذه الطبيعةَ إنما خلقها الله عَزَّوجَلَّ، وهذا مذهبُ أهلِ السنةِ والجماعةِ، يؤمِنون بأنَّ الأسبابَ مؤثرةٌ في مسبباتها، وأنَّ المسببات تحصلُ بالأسبابِ لا عندَ الأسبابِ، وهذا مذهبُ أهلِ السنةِ.

والذهبُ الثاني: مذهبُ الأشاعرةِ يقولون: الأسبابُ لا تؤثرُ، وإنما يحصلُ الشيءُ عندها لا بها.

عندما يصلِي الواحدُ هل حصلتْ صلاتُه بقدرتِه أم عِنْدَ قدرِه، والله يقول: ﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا أَسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ويقول النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَا أَمْرُكُمْ بِشَيْءٍ

وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ إِلَّا وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَى سَبَبٍ آخَرَ فِي حُصُولِ مُسَبِّبِهِ، وَلَا بُدَّ مِنْ عَدَمِ مَانِعٍ يَمْنَعُ مُفْتَضَاهُ إِذَا لَمْ يَدْفَعْهُ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ وَاحِدٌ يَسْتَقْلُ بِفِعْلِ شَيْءٍ إِذَا شَاءَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، قَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَنَا رَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ نَذَكَرُونَ» [الذاريات: ٤٩]. أَيْ: فَتَعْلَمُونَ أَنَّ خَالِقَ الْأَرْوَاجِ وَاحِدٌ^[١].

وَلِهَذَا مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا وَاحِدٌ - لِأَنَّ الْوَاحِدَ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا وَاحِدٌ - كَانَ جَاهِلًا،

فَأُتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ^[٢]، وَيَقُولُ: «صَلَّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا»^[٣]، إِذن القيام في الصلاة والركوع حصل بالقدرة.

المذهب الثالث: مذهب الجبرية الذين يُنكِرونَ أن يكون للعبد قدرةً يفعل بها، ويقولون: إنه - سبحانه - جعله بلا قدرة وبغير اختيار، وأنه يُجبر عليه.

المذهب الرابع: من يقولون: إن للعبد قدرةً مؤثرةً بنفسها وليس الله تعالى فيها أي شيء، وهذا مذهب القدرية، وهو إشراك مع الله سبحانه وتعالى.

[١] قوله: «وَمَنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَنَا رَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ نَذَكَرُونَ» رَوْجَيْنِ يَحْصُلُ بِهَا هَذَا الشَّيْءُ. يَقُولُ: مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ مَرْكَبٌ، وَلَوْلَمْ يَكُنْ إِلَّا سَبَبٌ وَمُسَبِّبٌ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْخَالِقَ وَاحِدٌ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ...، رقم (١٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب إذا لم يطق قاعدا صل على جنب، رقم (١١١٧).

فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ وَاحِدٌ صَدَرَ عَنْهُ وَحْدَهُ شَيْءٌ - لَا وَاحِدًا وَلَا اثْنَانٍ - إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ وَاجْتَمَعَ كُلَّهَا إِمَّا تَبَيَّنَتْ أَرْضُهُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَإِمَّا لَا يَعْلَمُونَ، فَالنَّارُ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا حَرَارَةً لَا يَجْعُلُ الْإِحْرَاقَ إِلَّا بِهَا وَبِمَحَلٍ يَقْبُلُ الْإِحْرَاقَ؛ فَإِذَا وَقَعَتْ عَلَى السَّمَنَدِلِ وَالْيَاقُوتِ وَنَحْوِهِمَا لَمْ تُحْرِقْهُمَا، وَقَدْ يُطْلَى الْحِسْنُ بِهَا يَمْنَعُ إِحْرَاقَهُ^[١].

[١] قُوَّةُ الحرارة في النار مُحْرِقٌ، لكن قد يكون هناك مانع يمنع من الاحتراق، مثلاً قُدرةُ الله عَزَّوجَلَّ كما حَدَثَ لنَّارِ إِبْرَاهِيمَ، كذلك هناك بعض الأدوية أو بعض المركبات تمنع من الاحتراق، يقول المؤلف رَحْمَةُ اللَّهِ: السَّمَنَدِلُ وَالْيَاقُوتُ وَنَحْوِهِمَا لَا تُحْرِقُ بالنَّارِ، وَلَا تُؤْثِرُ فِيهِ، وَالآن مَوْجُودٌ غَيْرُ السَّمَنَدِلِ، رأَيْتُ حَدِيدًا يُحِيطُ بِالْمَذْفَةِ وَلَا يُحْرِقُ، كذلك ربما يَصْلُ الإِنْسَانَ لِطَلَاءٍ يَمْنَعُ من الاحتراق، وهذا أَظْنُهُ مَوْجُودًا عند أَصْحَابِ الْإِطْفَاءِ، يُطْفَئُونَ بِهِ النَّارَ.

ويقولون: إن شيخ البطائحيَّة، وهو من المبتدعة، صنف أَظْنَهُ من الصوفية، تناولَ هو وشيخ الإسلام ابن تيمية في مسألة من المسائل فقال له شيخ البطائحيَّة: إذا كان كلامك حقاً أو كلامي حقاً ندخل النار، والَّذِي لا تأكله النار فهو على صواب؟ هذا الشيخ قد طَلَّ جَسْمَه بشيء يمنع من الاحتراق، ففطن شيخ الإسلام لهذا فقال: ولكن أَرِيدُ أَشْرِطُ عَلَيْكَ شَرْطاً وبعدها ندخل النار: أن تزيَّلَ هذا الطَّلَاءَ، فقال الرجل: لا^(١). السَّبَبُ مَوْجُودٌ، لكن المانع منع وجود هذا الشيء، والأشياء لا يمكن أن تَسْتَمِعَ إلا بوجود أسبابها.

(١) مجموع الفتاوى (١١/٤٤٧).

والشَّمْسُ الَّتِي يَكُونُ عَنْهَا الشُّعَاعُ لَا بُدَّ مِنْ جِسْمٍ يَقْبِلُ اتِّعَكَاسَ الشُّعَاعِ عَلَيْهِ، فَإِذَا حَصَلَ حَاجِزٌ مِنْ سَحَابٍ أَوْ سَقْفٍ لَمْ يَحْصُلْ الشُّعَاعُ تَحْتَهُ، وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ^[١].

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ «الإِيمَانِ بِالْقَدْرِ» فَإِنَّ الإِيمَانَ بِالْقَدْرِ مِنْ تَكَامِ التَّوْحِيدِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ نِظامُ التَّوْحِيدِ، فَمَنْ وَحَدَ اللَّهَ وَآمَنَ بِالْقَدْرِ تَمَّ تَوْحِيدُهُ، وَمَنْ وَحَدَ اللَّهَ وَكَذَّبَ بِالْقَدْرِ ثُقِضَ تَوْحِيدُهُ.

وَلَا بُدَّ مِنِ الْإِيمَانِ بِالشَّرْعِ^[٢] وَهُوَ الْإِيمَانُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهِيِّ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، كَمَا بَعَثَ اللَّهُ بِذَلِكَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ.

[١] إِذَا كَانَ الْجُوُعُ مُظْلِمًا، لَا يُمْكِنُ أَنْ تَظْهَرَ الشَّمْسُ إِلَّا إِذَا كَانَ لَهَا جُزْءٌ يَنْعَكِسُ عَلَيْهِ الضَّوءُ، الآن عَنْدَنَا نُورٌ أَبْيُضٌ مِنَ الشَّمْسِ؛ لَأَنَّهَا ذَرَاتٌ غَبَارٌ انْعَكَسَتْ فِي بَيْنِ ضَيَّاًوْهَا، لَكِنْ عَنْدَمَا تَكُونُ السَّمَاءُ صَافِيَةً تَحِدُّ رُزْقَةً مُظْلِمَةً، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَنْعَكِسَ إِلَّا إِذَا قَابَلَتْ جِسْمًا، إِذَا كَانَ هَذَا الْجَسْمُ كَثِيفًا حَتَّى تَنْظُرَ وَرَاءَهُ، فَالْحَاصلُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وَجْهِ السَّبِيلِ وَانْتِفَاعِ مَوَانِعِهِ.

[٢] مَا مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا وَلَهَا شَرْعٌ: هَذَا الشَّرْعُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ شَرْعًا مُنْتَزَلًا.

أَوْ شَرْعًا مُبَدَّلًا، أَوْ شَرْعًا مُؤَوَّلًا.

كُلُّ أُمَّةٍ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ شَرِيعَةٍ، الْمُسْلِمُونَ شَرِعَتُهُمْ مُنْزَلَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَهْلُ التَّأْوِيلِ وَالْبِدَعِ شَرِعُهُمْ مُؤَوَّلٌ، وَأَهْلُ الْأَنْحرَافِ شَرِعُهُمْ مُبَدَّلٌ بَدَّلُوهُ؛ اسْتَبَدَلُوا شَرِيعَةَ اللَّهِ بِغَيْرِهَا.

وَالْإِنْسَانُ مُضطَرٌ إِلَى شَرِيعَةِ حَيَاةِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَرَكَةٍ يَجْلِبُ بِهَا مَنْفَعَتَهُ، وَحَرَكَةٍ يَدْفَعُ بِهَا مَضَرَّتَهُ؛ وَالشَّرِيعَةُ هُوَ الَّذِي يُمِيزُ بَيْنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَنْفَعُهُ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي تَضُرُّهُ، وَهُوَ عَدْلُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَنُورُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ؛ فَلَا يُمُكِّنُ لِلْأَدَمِيَّينَ أَنْ يَعِيشُوا بِلَا شَرِيعَةٍ يُمِيزُونَ بِهِ بَيْنَ مَا يَفْعَلُونَهُ وَبَيْنَ مَا يَرْوُكُونَهُ^[١].

وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالشَّرِيعَةِ مُجَرَّدُ الْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ، بَلِ الْإِنْسَانُ الْمُنْفَرِدُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ فِعْلٍ وَتَرْكٍ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ هَمَّاً حَارِثٌ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّاً»^{[٢][٣]}،

[١] لَا بُدَّ لِأَيِّ أُمَّةٍ مِنْ نَظَامٍ، إِمَّا نَظَامٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ الشَّرِيعَةُ الْمَنْزَلُ أو نَظَامٌ مِنْ عِنْدِهَا وَهُوَ الشَّرِيعَةُ الْمُبَدَّلُ، أَوْ شَرِيعَةٌ مُؤَوَّلٌ بِالتَّحْرِيفِ؛ فَالشُّيُوعُ عِبُونُ عَنْهُمْ أَنظِمَةٌ يَمْشُونَ عَلَيْهَا، وَالنَّصَارَى وَالرَّأْسَائِيلُونَ عَنْهُمْ أَنظِمَةٌ يَمْشُونَ عَلَيْهَا، كُلُّ أُمَّةٍ لَا بُدَّ مِنْ نَظَامٍ تَمْتَيِّزُ عَلَيْهِ وَإِلَّا أَصْبَحَ النَّاسُ فَوْضَى، لَكِنْ مَا هُوَ النَّظَامُ الَّذِي يَكُونُ بِهِ صَلَاحُ الْخَلْقِ عَلَى الْإِطْلَاقِ؟

الجواب: نظام الله عَرَّجَ؛ لَأَنَّهُ نَظَامٌ مَنْ عَلِمَ بِأَحْوَالِ الْخَلْقِ وَمَا يَنْفَعُهُمْ، نَظَامٌ مَنْ هُوَ أَرْحَمُ بِالْخَلْقِ مِنْ أَنفُسِهِمُ اللَّهُ يَقُولُ: «وَلَا نَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُونُ رَحِيمًا» [النساء: ٢٩]، إِذْنُ فَاللَّهُ أَرْحَمُ بِي مِنْ نَفْسِي، وَهَذَا نَهَايَةُ أَنْ أُفْتَلَ نَفْسِي؛ لَأَنَّهُ رَحِيمٌ، فَالحاصلُ أَنَّا نَقُولُ كَمَا قَالَ شِيخُ الْإِسْلَامِ رَحْمَةُ اللَّهُ: إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ شَرِيعَةٍ، وَلَكِنْ لَا شَرِيعَةٌ يُصْلِحُ الْخَلْقَ إِلَّا شَرِيعَةُ اللَّهِ؛ لَأَنَّهُ الْعَدْلُ وَالنُّورُ.

[٢] قوله ﷺ: «حَارِثٌ» يعني: فاعِلُ الْحَرَكَةِ، يَتَحرَّكُ يَفْعَلُ.

(١) أخرجه أَحْمَد (٣٧٧/٣١)، وأَبُو دَاوُد: كِتَابُ الْأَدْبُرِ، بَابُ فِي تَغْيِيرِ الْأَسْمَاءِ، رَقْمُ (٤٩٥٠).

وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: مُتَحَرِّكٌ بِالإِرَادَاتِ، فَإِذَا كَانَ لَهُ إِرَادَةٌ فَهُوَ مُتَحَرِّكٌ بِهَا، وَلَا بُدَّ أَنْ يَعْرِفَ مَا يُرِيدُهُ هَلْ هُوَ نَافِعٌ لَهُ أَوْ ضَارٌ؟ وَهَلْ يُصْلِحُهُ أَوْ يُفْسِدُهُ؟.

وَهَذَا قَدْ يَعْرِفُ بَعْضَهُ النَّاسُ بِفِطْرَتِهِمْ كَمَا يَعْرِفُونَ اِنْتِفَاعَهُمْ بِالْأَكْلِ وَالشَّرْبِ، وَكَمَا يَعْرِفُونَ مَا يَعْرِفُونَ مِنَ الْعُلُومِ الْفَرْوَرِيَّةِ بِفِطْرَتِهِمْ، وَبَعْضُهُمْ يَعْرِفُونَهُ بِالْإِسْتِدْلَالِ كَالَّذِي يَهْتَدُونَ بِهِ بِعْقُولِهِمْ، وَبَعْضُهُ لَا يَعْرِفُونَهُ إِلَّا بِتَعْرِيفِ الرُّسُلِ وَبِيَاتِهِمْ لَهُمْ وَهِدَاهُمْ لَهُمْ^[١٠].

وَفِي هَذَا الْمَقَامِ تَكَلَّمُ النَّاسُ فِي أَنَّ الْأَفْعَالَ هَلْ يُعْرَفُ حُسْنُهَا وَقُبْحُهَا بِالْعَقْلِ أَمْ لَيْسَ لَهَا حَسَنٌ وَلَا قَبْحٌ يُعْرَفُ بِالْعَقْلِ؟ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَبَيَّنَا مَا وَقَعَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنِ الْإِشْتِبَاهِ^[١١].

وقوله: «هَمَّا» مِنَ الْهِمَّةِ وَهِيَ الإِرَادَةُ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ عِنْدَهُ إِرَادَةٌ وَعِنْدَهُ حِرْكَةٌ، لَكِنْ هَلْ هَذِهِ الإِرَادَةُ وَالْحِرْكَةُ تَنْفَعُهُ أَوْ لَا تَنْفَعُهُ؟ نَعْرُفُ ذَلِكَ مِنَ الشَّرْعِ.

[١] قَسْمُ الْأَشْيَاءِ الْمُعْرُوفَةِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ: مَعْرُوفَةُ بِالْفِطْرَةِ، وَمَعْرُوفَةُ بِالْإِسْتِدْلَالِ بِالْعَقْلِ، وَمَعْرُوفَةُ بِالْوَحْيِ مِنْ طَرِيقِ الرُّسُلِ.

هَذَا صَحِيحٌ، الْمَعْلُومَاتُ الْآنَ الَّتِي نَتَعَلَّمُهَا: إِما بِالْفِطْرَةِ مِثْلُ تَعْرِفُ أَنْكَ إِذَا أَكَلْتَ شَبِيعَتْ، وَإِما بِالْعَقْلِ وَالْإِسْتِدَاجِ مِثْلُ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ الْأَثْرَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُؤْثِرٍ، وَبَعْضُهُ تَعْرِفُهُ عَنْ طَرِيقِ الرُّسُلِ، وَهُوَ الْوَحْيُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ.

[٢] مَسْأَلَةُ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ، وَهَلْ يُعْلَمُ حُسْنُ الشَّيْءِ وَقُبْحُهُ بِالشَّرْعِ أَوْ يُعْلَمُ حُسْنُهُ وَقُبْحُهُ بِالْعَقْلِ؟

الْحَقِيقَةُ: الصَّوَابُ أَنْ بَعْضَهُ يُعْرَفُ بِالْعَقْلِ وَبَعْضَهُ بِالشَّرْعِ، وَبَعْضُهُ بِهِمَا جَمِيعًا؛

فَإِنَّهُمْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ كَوْنَ الْفِعْلِ يُلَائِمُ الْفَاعِلَ أَوْ يُنَافِرُهُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ سَبِيلًا لِمَا تُحِبُّهُ الْفَاعِلُ وَيَلْتَذَّبِهِ وَسَبِيلًا لِمَا تُبْغِضُهُ وَيَرْدِيهِ،

بمعنى أن بعض الأشياء نعرف حسنها أو قبحها وإن لم يردها الشرع، وليس معناه أنها حسناً شيئاً أو قبحناً أن الشرع لم يحسنها أو يقبحها، وبعضه لا نعرف أنه حسن أو قبيح إلا بطريق الشرع، وبعضه نعلم أنه حسن وقبيح بالعقل والشرع.

هناك أشياء لا نعرف الحكمة في تشريعها؛ إذن قبحها أو حسنها هذا معلوم بالشرع، كما لو قيل مثلاً: لماذا لا تصح الصلاة في أطهان الإبل مثلاً؟ عند الذين يقولون: إن العلة تعبدية يعلم قبح الصلاة في أطهان الإبل بالشرع لا بالعقل.

عندما يقال: لماذا يجب الوضوء من لحم الإبل؟ الذين يقولون: إن الوضوء من لحم الإبل تعبدية يقولون: لا نعرف عللته يعلم حسنها بالشرع لا بالعقل.

مثلاً: الاعتداء على الناس والأذية للناس معلوم قبحه بالعقل وبالشرع، بالشرع لأنّه نهى عنه، وبالعقل لأنّ كلّ إنسان يعرف أن العداوة على الغير أمر مكرود عند الناس؛ فهو قبيح.

توجد أشياء العقل يهتدى إلى حسنها وقبحها وإن لم يردها الشرع، حتى لو فرض أن الشرع سكت عنها فإنّ الإنسان يعلم قبحها أو حسنها بعقله، مثل ما يتعارفه الناس في عاداتهم من الأمور التي ما جرى بها الشرع، لكنّ الناس اعتادوا فيها يرون أنها قبيحة أو يرون أنها حسنة، فهذا الذي ذكره المؤلف رحمة الله هو الصواب أنا نقول: الأشياء الحسنة والقبيحة منها يعلم قبحها أو حسنها بالشرع، ومنها ما يعلم بالشرع وبالعقل، ومنها ما يعلم بالعقل وحده.

وَهَذَا الْقَدْرُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ تَارَةً وَبِالشَّرْعِ أُخْرَى وَبِهِمَا جَمِيعًا أُخْرَى؛ لَكِنَّ مَعْرِفَةَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ وَمَعْرِفَةَ الْغَایَةِ الَّتِي تَكُونُ عَاقِبَةُ الْأَفْعَالِ مِنِ السَّعَادَةِ وَالشَّقاوةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لَا تُعْرَفُ إِلَّا بِالشَّرْعِ، فَمَا أَخْبَرْتُ بِهِ الرَّسُولُ مِنْ تَفَاصِيلِ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَمَرْتُ بِهِ مِنْ تَفَاصِيلِ الشَّرَائِعِ لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ، كَمَا أَنَّ مَا أَخْبَرْتُ بِهِ الرَّسُولُ مِنْ تَفْصِيلِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ^[١] مِنْ تَفَاصِيلِ الشَّرَائِعِ لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ، كَمَا أَنَّ مَا أَخْبَرْتُ بِهِ الرَّسُولُ مِنْ تَفْصِيلِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ وَإِنْ كَانُوا قَدْ يَعْلَمُونَ بِعُقُولِهِمْ جُنَاحَ ذَلِكَ.

[١] قوله: «وَأَمَرْتُ بِهِ مِنْ تَفَاصِيلِ الشَّرَائِعِ لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ، كَمَا أَنَّ مَا أَخْبَرْتُ بِهِ الرَّسُولُ مِنْ تَفْصِيلِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ». ولهذا يقول المؤلف رحمة الله: هذا القدر يعلم بالعقل تارةً وبالشرع أخرى، وبهما جمِيعاً.

وإذا سألاً سائل: هل نتعرَّفُ على تحريم الدُّخانِ بالعقل أم بالشرع؟ فالجواب: هذا يُعلَمُ بالعقل والشرع معاً؛ لأنَّ الشرع نهى عن كُلِّ ما فيه مَضَرٌّ، والعقل يرْفُضُ كُلَّ ما فيه مَضَرٌّ.

لكن إذا استَحْسَنَ العَقْلُ شَيْئاً قَبْحَهُ الشَّرْعُ، كما لو استَحْسَنَ حَلْقَ الْلِّحَيَّةِ؛ لأنَّ هُنَاكَ نَاسٌ يَسْتَحْسِنُونَ حَلْقَ الْلِّحَيَّةِ، أو استَحْسَنَ تسويدَ شَعْرِهِ إِذَا ابِيَّضَ، يقول: أريُدُ أنْ أَظْلَلَ شَاباً.

نقول: هذا العَقْلُ لَيْسَ بِعَقْلٍ، هو عَقْلٌ مُنْحَرِفٌ فِي الْوَاقِعِ؛ لأنَّ تَحْسِينَ العَقْلِ أَنْ يُنْزَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِي مُنْزِلِهِ، الشَّابُ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ هَكَذَا، وَالشَّابُ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ شَاباً.

وَهَذَا التَّفْصِيلُ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الإِيمَانُ، وَجَاءَ بِهِ الْكِتَابُ هُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَنْفُسِكَ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَّكَتْ لَوْلَا إِلَيْمَنْ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهَدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَّتْ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾^[١] [سبأ: ٥٠]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنْذِرْتُكُمْ بِالْوَحْيٍ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

وَلَكِنْ تَوَهَّمْتَ طَائِفَةً أَنَّ لِلْحُسْنِ وَالْقُبْحِ مَعْنَى غَيْرَ هَذَا، وَأَنَّهُ يُعْلَمُ بِالْعُقْلِ، وَفَاقِبَتْهُمْ طَائِفَةٌ أُخْرَى ظَنَنتُ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ مِنَ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ يَخْرُجُ عَنْ هَذَا،

[١] قوله: ﴿إِنْ ضَلَّتْ فَإِنَّمَا أَضِلُّ﴾ [سبأ: ٥٠]، هل هَذِه مَسَأَةٌ فَرَضِيَّةٌ أمْ وَاقِعَيَّةٌ يمكن وقوعها؟ الجواب: أنها مسألة فرضية، هذا من باب التنزيل مع الخصم، ﴿إِنْ ضَلَّتْ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ [سبأ: ٥٠]، مثل قول المؤمن مِنْ آل فرعون: ﴿وَإِنْ يَكُنْ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُنْ صَادِقًا يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، وهذا المؤمن يعتقد أنه صادق، لكن قاله على سبيل التنزيل مع الخصم، ﴿أَنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، كيف هذا؟ هل بينها مفاضلة؟

معلوم أن الله خير، لكن لماذا قيل ذلك؟ للتنزيل مع الخصم.

قوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيتَاكُمْ لَعَلَى هُدَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. والجواب: نحن على الهدى، لكن هذا من باب التنزيل مع الخصم والإنصاف معهم؛ يعني يقول: إننا المسلمين أو إياكم على هدى أو في ضلال مبين، صحيح هذا، لكن من المعلوم أن المسلمين على هدى وأن الكفار على ضلال مبين.

فِكِلَّا الطَّائِفَتَيْنِ الَّتِيْنِ أَثْبَتَا الْحُسْنَ وَالْقُبْحَ الْعَقْلَيْنِ أَوِ الشَّرِّيْنِ وَأَخْرَجَتَاهُ عَنْ هَذَا الْقِسْمِ غَلِطَتْ، ثُمَّ إِنَّ كِلَّا الطَّائِفَتَيْنِ لَهَا كَانَتَا تُنْكِرُ أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بِالْمَحَبَّةِ وَالرَّضَا وَالسُّخْطِ وَالْفَرَحِ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ الْإِلَهِيَّةُ وَذَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّوَّاهِدُ الْعَقْلِيَّةُ تَنَازَّعُوا بَعْدَ اتَّفَاقِهِمْ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَفْعَلُ مَا هُوَ مِنْهُ قَبِيْحٌ، هَلْ ذَلِكَ مُمْتَنَعٌ لِذَاتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ قُدْرَتُهُ عَلَى مَا هُوَ قَبِيْحٌ، وَأَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- مُنْزَهٌ عَنْ ذَلِكَ لَا يَفْعَلُهُ لِعَجَرٍدِ الْقُبْحِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي أَثْبَتُوهُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ [١].

[١] تَنَازَّعُوا بَعْدَ اتَّفَاقِهِمْ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَفْعَلُ مَا هُوَ قَبِيْحٌ، هَلْ ذَلِكَ مُمْتَنَعٌ لِذَاتِهِ وَأَنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ قُدْرَتُهُ عَلَى مَا هُوَ قَبِيْحٌ؟ أَوْ أَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- مُنْزَهٌ عَنْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ يَقْدِرُ؟ أَوْ أَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- مُنْزَهٌ عَنْ ذَلِكَ؟

نَصْرَبُ مِثَالًا فِي الظُّلْمِ؛ مثلاً الظُّلْمُ قَبِيْحٌ شَرِّعًا وَعَقْلًا، هَلْ هُوَ مُمْتَنَعٌ عَلَى اللَّهِ بِذَاتِهِ؟ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَقْدِرَ عَلَى الظُّلْمِ، أَوْ أَنَّ اللَّهَ مُنْزَهٌ عَنِ الظُّلْمِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ؟

الجواب: أَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- مُنْزَهٌ عَنِ الظُّلْمِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ، وَهَذَا فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ وَجْهُ الْمَدْحُ وَالْكَمَالِ؛ يَكُونُ قَادِرًا لِكَنَّهُ مُنْزَهٌ عَنْهُ؛ لَأَنَّا لَوْ قُلْنَا: أَنَّهُ مُسْتَحِيلٌ لِلَّهِ، وَأَنَّ كُلَّ قَبِيْحٍ فَهُوَ مُسْتَحِيلٌ عَلَى اللَّهِ لِذَاتِهِ هَلْ يُمْدَحُ عَلَى هَذَا؟

الجواب: لَا، الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُبَطِّشَ وَلَا أَنْ يَسْرِقَ وَالسَّرِقَةُ مُسْتَحِيلَةٌ عَلَيْهِ لِذَاتِهِ لَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ يَدَانِ وَلَا رَجُلَانِ، هَلْ يُمْدَحُ عَلَى تَرْكِ السَّرِقَةِ؟

بِالْطَّبِيعِ لَا يُمْدَحُ عَلَى تَرْكِ السَّرِقَةِ؛ لَأَنَّهُ عَاجِزٌ، لَكِنْ لَوْ أَنْ هَنَاكَ رَجُلًا نَشِيطًا وَقوِيًّا يُسْتَطِيعُ السَّرِقَةَ وَيُفْرِّغُ وَلَا أَحَدَ يُلْحَقُهُ وَلَكِنْهُ تَرَكَ السَّرِقَةَ فَهَذَا يُمْدَحُ.

وَالْقُولَانِ فِي الْأَنْحِرَافِ مِنْ جِنْسِ الْقَوْلَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ [١]

هم يُقُولُونَ: هل هَذَا الْقَبِيْحُ - الَّذِي يَرَوْنَ أَنَّهُ قَبِيْحٌ - هل هُوَ مُمْتَنَعٌ عَلَى اللَّهِ بِذَاتِهِ؟
بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَوْ أَنَّ اللَّهَ مُتَنَزَّهٌ عَنْهُ وَإِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ؟

الصَّوَابُ أَنْ نَقُولَ: مُتَنَزَّهٌ عَنْ وَإِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ، لَكِنْ يُحِبُّ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُ
لَيْسَ عُقُولَنَا هِيَ الْمِيزَانُ لِلْعَقْلِ الْقَبِيْحِ وَالْمَحْسِنِ.

لَوْ كَانَتْ عُقُولَنَا هِيَ الْمِيزَانُ لَكُنَّا مُثَلَّاً تُحْسِنُ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
عَلَى الْحَقِّ، أَحْسَنُ مَنْ كَوَنَ بَعْضُهُمْ لِلنَّارِ وَبَعْضُهُمْ لِلْجَنَّةِ مُثَلَّاً، قَدْ يُحْسِنُ عَقْلَنَا هَذَا،
لَكِنْ هَلْ هَذَا صَحِيْحٌ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى الْحَقِّ حَتَّى لَا يُعَذَّبَ
أَحَدٌ؟

الجواب: لا، لَيْسَ هَذَا هُوَ الْحُسْنُ، الْحُسْنُ مَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ هَذَا يُحِبُّ
أَنْ تَعْرِفَ أَنْكَ وَإِنْ أَثْبَتَ الْحُسْنَ وَالْقَبِيْحَ الْعَقْلَيْنَ فَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنْ عَقْلَكَ هُوَ الْمِيزَانُ
لِلْحُسْنِ وَالْقَبِيْحِ باعْتِبَارِ فِعْلِ اللَّهِ؛ لَأَنَّنَا نَحْنُ لَا تُحِيطُ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ حَتَّى تَحْكُمَ
عَلَيْهِ بِعُقُولَنَا وَنَقُولُ: هَذَا حُسْنٌ، لَمَذَا لَمْ يَفْعَلْهُ اللَّهُ؟ وَهَذَا قَبِيْحٌ لَمَذَا فَعَلَهُ؟ فَهَذَا غَيْرُ
مُمْكِنٍ.

[١] الأَصْلُ فِي الْقَوْلَيْنِ أَنْهَا مِنْ جِنْسِ الْقَوْلَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ يَعْنِي: فِي الْقَضَاءِ
وَالْقَدَرِ الَّذِي هُوَ قَوْلُ الْجَبْرِيَّةِ وَقَوْلُ الْقَدَرِيَّةِ.

الْجَبْرِيَّةُ عَظَمَوْا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَلَكِنَّهُمْ عَطَلُوا الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ.

وَالْقَدَرِيَّةُ عَلَى الْعَكْسِ؛ الْجَبْرِيَّةُ يُقُولُونَ: إِنَّهُ يُحِبُّ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ طَائِعًا لِللهِ
تَعَالَى فِي تَرْكِ الْمَعَاصِي وَفِعْلِ الْعِبَادَاتِ، لَكِنَّهُمْ يُقُولُونَ: إِنَّهُ خَاضِعٌ بِالْقَدَرِ فَعَظَمَوْا

أولئك لم يفرقوا في خلقه وأمره بين المدى والضلال، والطاعة والمعصية، والأبرار والفحجار، وأهل الجنة وأهل النار، والرحمة والعقاب؛ فلَا جعلوه محموداً على ما فعله من العدل أو ما تركه من الظلم، ولما فعله من الإحسان والنعمة، وما تركه من التعذيب والنقم، والآخرون نزهوه بناء على القبح العقلي الذي أثبتوه ولا حقيقة له، وسُوّوه بخلقه فيما يحسن ويُقبح، وشبّهوه بعباده فيما يأمر به وينهى عنه.

فمن نظر إلى القدر فقط^[١]، وعظم الفناء في توحيد الربوبية^[٢]،

القدر وغلوا فيه وتهاؤنا في الأمر والنهي حتى إننا سبق أن قلنا: إن الخبرية مرجحة، ويقولون: إن العاصي الفاسق مؤمن كامل الإيمان والقدرة بالعكس.

[١] الذين ينظرون إلى الحقيقة الكونية فقط لا يميزون، لأنهم يقولون: الكل من إرادة الله، ونحن نفني في توحيد الله تعالى توحيد الربوبية فلا نقول: هذا حسن وهذا قبيح؛ لأن الكل يعتبر حسناً عندهم، كله من تقدير الله، فهو يفني أن يشاهد الحسن والقبح فيما يقع من أفعال الله عزوجل ويقول: إن كل ما أوجده الله سبحانه وتعالى فإنه حسن؛ لأن يقف أمام القدر ووقف الميت بين يدي الغاصل، لا يشعر بما يفعل فيه، فهو يقول: نحن نعظم القدر غاية التعظيم، وتوحيد الربوبية، ونفني بهذا التوحيد عمّا سواه.

[٢] ومعنى الفناء فيه الانغمس بحيث يضمحل وجود المرء في هذا الباب. فتبين الآن أن هؤلاء الذين يعظمون الفناء في توحيد الربوبية ويقفون عند الحقيقة الكونية لا يميزون بين الضار والنافع، لماذا؟

وَوَقَفَ عِنْدَ الْحِقِيقَةِ الْكُوْنِيَّةِ لَمْ يُمِيزْ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ، وَالصَّدْقِ وَالْكَذِبِ، وَالْبَرِّ وَالْفُجُورِ، وَالْعَدْلِ وَالظُّلْمِ، وَالطَّاعَةِ وَالْمُعْصِيَةِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالرَّشادِ وَالْغَيْيِّ، وَأَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ، وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ^[١].

وَهُؤُلَاءِ مَعَ أَنْتُهُمْ مُخَالِفُونَ بِالصَّرُورَةِ لِكُتُبِ اللَّهِ وَدِينِهِ وَشَرَائِعِهِ، فَهُمْ مُخَالِفُونَ أَيْضًا لِصَرُورَةِ الْحِسْنَ وَالْذُوقِ وَصَرُورَةِ الْعَقْلِ وَالْقِيَاسِ، فَإِنَّ أَحَدَهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَلْتَذَّ بِشَيْءٍ وَيَتَأَلَّمْ بِشَيْءٍ، فَيُمِيزُّ بَيْنَ مَا يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، وَمَا لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، وَبَيْنَ مَا يُؤْذِيهِ مِنَ الْحَرَّ وَالْبَرْدِ وَمَا لَيْسَ كَذِلِكَ، وَهَذَا التَّمْيِيزُ بَيْنَ مَا يَنْفَعُهُ وَيَضُرُّهُ هُوَ الْحِقِيقَةُ الشَّرِيعَةُ الدِّينِيَّةُ^[٢].

لأنَّ الْكُلَّ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ، فَهُمْ يَقُولُونَ: كُلُّ مَا قَدَرَ اللَّهُ فَلَا فَرْقَ فِيهِ، يُجِبُّ أَنْ نَسْتَسِلَمَ لِلرُّبُوبِيَّةِ اسْتِسْلَامًا كَامِلًا أَعْمَى فَلَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الصَّارَّ وَالنَّافِعِ، وَلَا بَيْنَ الْحَسْنِ وَالْقَبِيحِ، وَلَا بَيْنَ الظُّلْمِ وَالْعَدْلِ؛ لِأَنَّ الْكُلَّ مِنْ فَعْلِ اللَّهِ، فَهُمْ يَقْنُونَ فِي هَذَا التَّوْحِيدِ عَنْ كُلِّ مَا يَقْعُدُ مِنْ جَانِبِ الرُّبُوبِيَّةِ.

[١] الإِنْسَانُ الَّذِي لَا يُحِسُّ بِجَانِبِ الشَّيْءِ طَبِيعًا لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ النَّافِعَةِ وَالضَّارَّةِ وَالْمَلَائِمَةِ وَغَيْرِ الْمَلَائِمَةِ، هَذَا وَجْهُ كَلَامِ الْمُؤْلِفِ، أَنَّهُمْ لَمْ يُمِيزُوا بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ، وَالصَّدْقِ وَالْكَذِبِ، وَالْبَرِّ وَالْفُجُورِ، وَالْعَدْلِ وَالظُّلْمِ إِلَى آخِرِهِ.

[٢] كَلَامُ الْمُؤْلِفُ رَحْمَةُ اللَّهِ وَاضْحَى فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ، يَقُولُ: أَنْتُمْ تُفَرِّقُونَ بَيْنَ الَّذِي يَلَئُمُكُمْ وَالَّذِي لَا يَلَئُمُكُمْ، وَالَّذِي يَنْفَعُكُمْ وَالَّذِي يَضُرُّكُمْ، فَكِيفَ تَقْنُونَ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ؟

وَالتَّفْرِيقُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ مَا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ، فَكَوْنُكُمْ تَقْنُونَ فِي جَانِبِ

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْبَشَرَ يَتَّهِي إِلَى حَدٍّ يَسْتَوِي عِنْدَهُ الْأَمْرَانِ دَائِمًا فَقَدْ افْتَرَى وَخَالَفَ صَرْوَرَةَ الْحِسْنَ؛ وَلَكِنْ قَدْ يَعْرِضُ لِلإِنْسَانِ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ عَارِضٌ كَالسُّكْرِ وَالْإِغْمَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكِ إِيمَانًا يَشْغُلُ عَنِ الْإِحْسَاسِ بِعَصْبِ الْأَمْوَرِ، فَأَمَّا أَنْ يَسْقُطَ إِحْسَاسُهُ بِالْكُلُّ لِمَعَ وُجُودِ الْحَيَاةِ فِيهِ فَهَذَا مُمْتَنَعٌ، فَإِنَّ النَّائِمَ لَمْ يَفْقَدْ إِحْسَاسَ نَفْسِهِ بَلْ يَرَى فِي مَنَامِهِ مَا يَسُوُّهُ تَارَةً وَمَا يَسُرُّهُ أُخْرَى، فَالْأَحْوَالُ الَّتِي يَعْبُرُ عَنْهَا بِالْأَصْطِلَامِ^[١] وَالْفَنَاءِ وَالسُّكْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

إِنَّمَا تَتَضَمَّنُ عَدَمُ الْإِحْسَاسِ بِعَصْبِ الْأَشْيَاءِ دُونَ بَعْضٍ، فَهِيَ مَعَ نَقصِ صَاحِبِهَا - لِضَعْفِ تَمْيِيزِهِ - لَا تَتَّهِي إِلَى حَدٍّ يَسْقُطُ فِيهِ التَّمْيِيزُ مُطْلَقاً، وَمَنْ نَفَى التَّمْيِيزَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُطْلَقاً وَعَظِيمَ هَذَا الْمَقَامِ فَقَدْ غَلَطَ فِي الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ قُدْرَا وَشَرْعَا، وَغَلَطَ فِي خَلْقِ اللَّهِ وَفِي أَمْرِهِ؛ حَيْثُ ظَنَّ وُجُودَ هَذَا وَلَا وُجُودَ لَهُ، وَحَيْثُ ظَنَّ أَنَّهُ مَدْوُحٌ وَلَا مَدْحَ في عَدَمِ التَّمْيِيزِ وَفُقدَانِ الْعَقْلِ وَالْمَعْرِفَةِ^[٢].

الرُّبُوبِيَّةِ وَتَسْوِيَنَ ما جاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ، هَذَا أَمْرٌ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ وَالْفَطْرَةِ وَهُنَّ الْقِيَاسُ الصَّحِيحُ.

【١】 الْأَصْطِلَامُ: الشَّيْءُ الَّذِي يَفْنِي بِهِ الْإِنْسَانُ.

【٢】 قَضِيَّةُ الْفَنَاءِ هَذِهِ الَّتِي يَقْنُونَ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ كَالسَّابِقِ فِي الْبَحْرِ تَكَلَّاطُهُمُ الْأَمْوَاجُ وَهُوَ لَا إِرَادَةَ لَهُ وَلَا شُعُورَ وَلَا قُدْرَةَ، يَسِيرُ مَعَ الْأَمْوَاجِ إِنْ ارْتَفَعَتْ ارْتَفَعَ وَإِنْ انْخَفَضَتْ انْخَفَضَ، فَهُوَ يَقُولُ: الْكُلُّ حَسَنٌ وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الضَّارِّ وَالنَّافِعِ وَلَا بَيْنَ الْحُسْنَ وَالْقُبْحِ، وَلَا بَيْنَ الْوَاجِبِ وَالْمُحَرَّمِ؛ لَأَنَّهُ سَائِرٌ فِي قَدِيرِ اللَّهِ وَتَحْتَ إِرَادَتِهِ وَسِيَطَرَتِهِ الْكَاملَةِ.

وَإِذَا سَمِعْتَ بَعْضَ الشُّيُوخِ - يعنى الصُّوفِيَّةَ - يَقُولُ: أُرِيدُ أَنْ لَا أُرِيدَ، أَوْ أَنَّ الْعَارِفَ لَا حَظَّ لَهُ، وَأَنَّهُ يَصِيرُ كَالْمَيْتِ بَيْنَ يَدِي الْغَاسِلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا إِنَّمَا يُمَدِّحُ مِنْهُ سُقُوطُ إِرَادَتِهِ الَّتِي يُؤْمِرُ بِهَا وَعَدَمُ حَظِّهِ الَّذِي لَا يُؤْمِرُ بِطَلَبِهِ، وَأَنَّهُ كَالْمَيْتِ فِي طَلَبِ مَا لَمْ يُؤْمِرْ بِطَلَبِهِ وَتَرَكَ دَفْعَ مَا لَمْ يُؤْمِرْ بِدَفْعِهِ.

وَمَنْ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهُ تَبْطُلُ إِرَادَتُهُ بِالْكُلِّيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا يُحِسِّنُ بِاللَّذَّةِ وَالْأَلَمِ؛ وَالنَّافِعِ وَالضَّارِّ فَهَذَا مُخَالِفٌ لِضَرُورَةِ الْحِسْنَ وَالْعُقْلِ.

وَمَنْ مَدَحَ هَذَا فَهُوَ مُكَابِرٌ مُخَالِفٌ لِضَرُورَةِ الدِّينِ وَالْعُقْلِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا كَمَا قَالَ الشِّيخُ: مُخَالِفٌ لِلَّدِينِ، وَمُخَالِفٌ لِلشَّرِيعَ، وَمُخَالِفٌ لِلْحِسْنَ وَالْعُقْلِ وَالْفِطْرَةِ وَالْقَدْرِ أَيْضًا؛ حَتَّى الْقَدْرِ فِيهِ أَشْيَاءٌ لَمْ نُؤْمِرْ بِهَا، وَلَمْ نُلْزَمْ أَنْ نُرْضِي بِهَا.

هُلْ يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُرْضِي بِالْمُعَاصِي، بِمَعْنَى: أَنْهَا بِقَدْرِ اللَّهِ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْنَا مَدَافِعَتُهَا وَإِزَالَةُ الْمُنْكَرِ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِي لِسَانِهِ، فَإِنَّ لَمْ يَسْتَطِعْ فِي قَلْبِهِ»^(١).

وَالْحَاصلُ أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ مِنَ الْفَنَاءِ وَالَّتِي يُزْعِمُ هُؤُلَاءِ الشِّيُوخُ الَّذِينَ يُسَمُّونَ أَنفُسَهُمْ بِالْعَارِفِينَ بِاللَّهِ، يُزْعِمُونَ أَنَّ هَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، نَقُولُ: هَذِهِ حَقِيقَةُ الْجَحْنَمِ، فَإِنْ مَنْ لَا يُمِيزُ لَا فَرْقَ بَيْنِهِ وَبَيْنِ الْمُجْنَوْنِ، وَالْبَهِيمَةُ خَيْرٌ مِنْهُ؛ لَأَنَّ الْبَهِيمَةَ تُمْيِّزُ بَيْنَ مَا يَنْفَعُهَا وَيُضَرُّهَا فَتَأْكُلُ مَا يَنْفَعُهَا وَتَرْكُ مَا يُضَرُّهَا.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمُ: كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابُ بَيْانِ كُونِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الإِيمَانِ، وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجْبَانِ، رَقْمُ (٤٩).

فصل في أقسام الفناء الثلاثة

والفناء يراد به ثلاثة أمور:

أحدُها: هُوَ الفناء الديني الشرعي الذي جاءت به الرُّسُلُ وَأُنزِلتْ به الكُتبُ، وَهُوَ أَنْ يَفْنِي عَمَّا لَمْ يَأْمُرْهُ اللَّهُ بِهِ يَفْعُلْ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَيَفْنِي عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ بِعِبَادَتِهِ، وَعَنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَعَنِ التَّوْكِلِ عَلَى غَيْرِهِ بِالتَّوْكِلِ عَلَيْهِ، وَعَنْ مُحِبَّةِ مَا سِوَاهُ بِمُحِبَّتِهِ وَمُحِبَّةِ رَسُولِهِ، وَعَنْ خَوْفِ غَيْرِهِ بِخَوْفِهِ، بِحَيْثُ لَا يَتَبَعُ الْعَبْدُ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ، وَبِحَيْثُ يَكُونُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: «قُلْ إِنَّ كَانَ أَبَاكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَنَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَعَشِيرَاتُكُمْ وَأَمْوَالُ أَقْرَفَتُمُوهَا وَتَجْنَرَتْ نَخْشُونَ كَسَادَهَا وَمَسَكِنَ تَرَضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» [النور: ٢٤]، فَهَذَا كُلُّهُ هُوَ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ [١].

[١] هذا الفناء الديني الشرعي، وهو الفناء بالطاعة عن المعصية، وبعبارة أعم: في كلّ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ عَمَّا يَهْمِي اللَّهُ عَنْهُ، وَمَعْنَى الفناء: هو الانسِغالُ والذَّوْيَانُ، وكلمة الفناء الديني فيها أعتقدُ أنَّ الشَّيخَ رَحْمَةُ اللَّهُ قَالَهَا مِنْ بَابِ تَتْمِيمِ الأَقْسَامِ، وَإِلَّا فَلَا يَصْحُّ أَنْ نَقُولَ إِنَّ هَذَا فَنَاءً.

لم نسمع أنَّ الإِنْسَانَ يَفْنِي فِي الصَّلَاةِ عَنْ تَرْكِ الصَّلَاةِ، وَلَا يَفْنِي بِالصِّيَامِ عَنِ الإِفْطَارِ، لَكِنَّ مِنْ بَابِ تَتْمِيمِ الأَقْسَامِ كَيْ تُنْصَبِّطَ الْمَسْأَلَةُ أَتَى بِهِ الْمُؤْلَفُ.

وَأَمَّا الْفَنَاءُ الثَّانِي، وَهُوَ الَّذِي يَذْكُرُهُ بَعْضُ الصُّوفِيَّةِ، وَهُوَ أَنْ يَقْنَى عَنْ شُهُودِ مَا سَوَى اللَّهِ تَعَالَى فَيَقْنَى بِمَعْبُودِهِ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيَمْذُكُرُهُ عَنْ ذِكْرِهِ، وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ بِحَيْثُ قَدْ يَغِيبُ عَنْ شُهُودِ نَفْسِهِ لِمَا سَوَى اللَّهِ تَعَالَى، فَهَذَا حَالٌ نَّاقِصٌ قَدْ يَعْرِضُ لِيَعْضِ السَّالِكِينَ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ لَوَازِمِ طَرِيقِ اللَّهِ، وَهِذَا كَمْ يُعْرَفُ مِثْلُهُ هَذَا لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِلسَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، وَمَنْ جَعَلَهُ هَذَا نِهايَةَ السَّالِكِينَ فَهُوَ ضَالٌّ ضَالَّاً مُبِينًا، وَكَذَلِكَ مَنْ جَعَلَهُ مِنْ لَوَازِمِ طَرِيقِ اللَّهِ فَهُوَ مُخْطِئٌ خَطَاً فَاحِشًا، بَلْ هُوَ مِنْ عَوَارِضِ طَرِيقِ اللَّهِ الَّتِي تَعْرِضُ لِيَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ، لَيْسَ هُوَ مِنَ الْلَّوَازِمِ الَّتِي تَحْصُلُ لِكُلِّ سَالِكٍ [١].

[١] إذا سُئل سائل: هذه الطَّرِيقَةُ أو هذا الفناء هل هُوَ مُحْمُودٌ أم لا؟

الجواب: لا، ليس بمُحْمُودٍ؛ لأنَّه ما دام لم يُعرَفُ عن النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ الْأَصْلَاحُ وَالسَّلَامُ ولا عن السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ، ثُمَّ إِنَّا قَدْ مَرَّ عَلَيْنَا هَذَا الْقِسْمَ مِنْ قَبْلُ، وَأَنَّ بَعْضَهُمْ جَعَلَهُ مِنْ تَمَامِ التَّوْحِيدِ، وَقَلَنا: إِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الْأَصْلَاحُ وَالسَّلَامَ لَمْ يَغِبْ بِمَعْبُودِهِ عَنْ عِبَادَتِهِ، بَلْ إِنَّهُ ﷺ كَانَ أَعْبَدَ النَّاسَ لِرَبِّهِ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَغِبْ عَنْ عِبَادَتِهِ، بَلْ إِنَّهُ يُحَفِّظُ الصَّلَاةَ إِذَا سَمِعَ بُكَاءَ الصَّبِيِّ مُخَافَةً أَنْ تُفْتَنَ أُمُّهُ [١]، وَيَحْمِلُ أُمَّامَةَ بَنِي زَيْنَبَ وَهُوَ فِي صَلَاتِهِ [٢].

وَكَانَ عُمُرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «كُنْتُ لَأَجْهَزُ جِيشِي وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ» [٣].

(١) تقدَّم تخرِيجه (ص: ٤٥٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة، رقم (٥١٦)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة، رقم (٥٤٣).

(٣) أخرجه البخاري: أبواب العمل في الصلاة، باب يفكِّر الرجل الشيء في الصلاة، تعليقا.

وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَهُوَ الْفَنَاءُ عَنْ وُجُودِ السَّوَى^[١].....

فهل هؤلاء غابوا بِمَعْبُودِهِمْ عن عبادتهم؟ لا، بل شهدوا عبادتهم، وشهدوا معبودهم، فهم يعبدون الله كأنهم يرؤنه، ولم ينسوا عبادتهم، ولم يذروا هم يعبدون أم لا يعبدون اشتغالاً بِمَعْبُودِهِمْ، فالحاصل أن هذا الفناء ليس بطريق سليم.

أما أمر عروة بن الزبير رَحْمَةُ اللَّهِ مِنْ كبارِ الفُقَهَاءِ، فهو لم يغب بعبادته عن معبوده، غاب بعبادته عن ما يفعل به، ففرق بين هذا وهذا، يعني هو قال: «تقطّعُونَ قَدَمِي إِذَا دَخَلْتُ فِي صَلَاتِي»^(١) ففعلاً، لكن ليس معناه: أنه غاب بمعبوده عن عبادته، بل هو غاب بعبادته عَمَّا سَوَى الْعِبَادَةِ، هذا ليس كما قال هؤلاء.

الفرق بين الأمرين؛ قلنا: إن التعبير بالفناء هذا مبتدعٌ، لكن معناه أن الإنسان يستغل بالطاعة عن المعصية هذا المعنى؛ يعني: بدلاً من أن يذهب ليعصي الله يقعد يعبد الله، أما هذا فإنه يغيب ويذهب عن العبادة بِالْمَعْبُودِ؛ يعني: إذا قام يصلي لا يشعر بأنه في صلاة لا يشعر بأن الله أمامه مثلاً وينسى كل شيء كأنه لا يصلي ولا يدري هو ركع أو لم يركع وسجد أو لم يسجد، غائب ذاهب بما شاء.

فالمعبد إن كان في عبادة، إن كان في ذكر حتى في جانب الرُّبوبيَّةِ يغيب أو يفني بِمَشْهُودِهِ عن مشاهديه، هذا ليس صحيحًا هذا مثل الجنون، وهذه ليست بممدودة كما قال شيخ الإسلام، ومن قال: إن هذا مدوح؛ فهذا خطأ.

[١] [«السوى» سوى المفني فيه؛ يفني عن وجود ما سوى الذي فني فيه، فالسوى هنا هي كلمة سوى كذا وكذا؛ بمعنى الغير أي: غير هذا، رأيت القوم سوى زيد؛ أي: